Intihaa Journal

ISSN:2992-1546المجلد (01) العدد(02)(2024): رقم صفحة البداية 86– رقم نهاية الصفحة104

الــرحــلات الــشــعــريــةماهيتها وأهم خصائصها

Poetic Excursions
Its concept and most important characteristics

هند تمار

hind.temmar@ens-ouargla.dz

مخبر الوسائط التعليمية- المدرسة العليا للأساتذة بورقلة

المدرسة العليا للأساتذة بورقلة

تاريخ الاستلام 2024/10/30 تاريخ القبول:2024/11/30 تاريخ النشر:2024/12/07

ملخص:

الرحلة فن قائم بذاته، فن فضفاض يتميز بمرونة عالية وقدرة كبيرة على التلون والاختلاف؛ حسب مقتضى كل فرد وعصره وبيئته، إضافة لدافع رحلته والذي له سلطة مباشرة على المضمون؛ ذلك أن الخطاب الرحلي يأخذ مضمونه من دافع الرحلة، ويقوم الخطاب الرحلي على إعادة تشكيل مجموعة من الأحداث الواقعية، من خلال نمطين؛ السرد والوصف، حيث يرتبط السرد بفعل الزمن المحدد بفعل ماض، بينما يرتبط الوصف بالمكان وبينهما علاقة تدرج في صيغ الحكي.

ولأن الخطاب الرحلي قابل للانفتاح والتنوع، يتوافق واختلاف الرحالين، ومشاربهم ومجالات اهتمامهم، وأساليب تعابيرهم؛ فقد كتب وفق نمطي الكتابة؛ نثرا وشعرًا؛ ولهذا فقد عرف التراث الرحلي رحلات شعرية خالصة، ونحن في هذه الدراسة نسعى للكشف عن ماهية الرحلات الشعرية وأهم مميزاتها، معتمدين على مجموعة من الأدوات الإجرائية منها؛

الوصف والاستقراء والتحليل، حيث نحاول أن نبرز أهم خصائص الرحلات الشعرية سعيا منا لتسليط الضوء على هذا النوع المغمور من الرحلات، ولخلق استراتيجية تساعدنا في دراستها واستثمارها في واقعنا.

الكلمات المفتاحية:فن الرحلة، الرحلات الشعرية، القصيدة، السرد، الوصف، الروي والقافية.

Abstract

The journey is an art in itself, a flexible and expansive art that is highly adaptable and capable of changing and varying according to the individual, their era, and environment. It is also influenced by the motivation behind the journey, which directly impacts its content. This is because the travel narrative derives its substance from the journey's motive. The travel discourse is based on reshaping a set of real events through two patterns: narration and description. Narration is associated with a specific timeframe defined by past actions, while description is connected to place, and between them, there is a relationship of progression in narrative forms.

Because the travel discourse is open and diverse, it aligns with the differences between travelers, their perspectives, interests, and expression styles, and thus it has been written in two forms: prose and poetry. As a result, the travel heritage includes purely poetic journeys. In this study, we aim to uncover the nature of poetic journeys and their most significant features, relying on a set of methodological tools such as description, induction, and analysis. We seek to highlight the main characteristics of poetic journeys in order to shed light on this often-overlooked genre of travel writing and to create a strategy that helps us study and utilize it in our reality.

Keywords: art of travel, poetic journeys, poetry, narration, description, rhyme, and meter.

1- .مقدمة

تقف الرحلة في مواطن كثيرة على أنها مستقلة بشخصيتها الأدبية، ومن المعلوم أن العمل الفني الذي يحمل الرحلة موضوعا؛ قائم على خطاب ونص يجليان حدثا أو موضوعا يتعلق بحكاية أو سفر؛ حيث تتميز بخصائصها، وهذا ما يجعلها جسدا معترفا به في عرف الثقافة العربية؛ حيث يقوم الخطاب الرحلي على إعادة تشكيل مجموعة من الأحداث الواقعية، من خلال نمطين؛ السرد والوصف، حيث يرتبط السرد بفعل الزمن المحدد بفعل ماض، بينما يرتبط الوصف بالمكان وبينهما علاقة تدرج في صيغ الحكي.

وأدب الرحلة فن من الفنون التي يسعى الرحال من خلاله إلى نقل أحداث رحلته وتسجيل انطباعاته، وما رآه من عادات وسلوكات عن أحوال البلدان الأخرى؛ وهذا ما جعله جنسا أدبيا له من الصفات والخصائص ما يميزه عن الأجناس الأدبية الأخرى، حيث يجمع بين الإفادة والإمتاع، ويعتبر النص الرحلي بنية تستوعب جل الأشكال والمضامين فيمتزج فيه الفصيح بالعامي، والعلمي بالأدبي، والسردي والوصفي؛ ولهذا فإن النص الرحلي لا يخلو من جملة من العناصر وان لم تتوفر جميعها، فكل نص يقتبس متطلباته من هذه العناصر وفق الرحلة والرحال « ثم تجيء مدونة بأسلوب يغلب عليها الطابع المحدد للرحلة حيث تتخذ صفة الرحلة انطلاقا من اعتمادها على مجموعة من المكونات والعناصر، وفق صياغات أدبية وفنية وجمالية»[1]

ولهذا فقد عرف الخطاب الرحلي القابل للانفتاح والتنوع شكلين من الكتابة؛ نثرا وشعرا، فقد احتوى التراث الرحلي رحلات شعرية خالصة؛ **والرحلات الشعرية** هي رحلات عمد مؤلفوها إلى سردها ونظمها شعرا ووصف كل ما لاقوه فيها بدءاً من لحظة الانطلاق وحتى الوصول في قصيدة مطولة خاصة بالرحلة.

وبهذا فقد عُنون المقال "**بالرحلات الشعرية، ماهيتها وأهم خصائصها** "، حيث نطرح في هذا البحث إشكالية رئيسية مفادها؛ "ما أبرز خصائص الرحلات الشعرية؟

وتنضوي تحت هذه الإشكالية فرضيات عديدة نذكر منها؛

- تتشارك الرحلات الشعرية في كثير من السمات التي تشكل هويتها، وتبرز تفردها عن النثرية.

- وجود اختلاف تام بين الرحلة النثرية المعروفة والشعرية المغمورة.

- اختلاف المضامين بين الرحلتين الشعرية والنثرية.

-ولهذا الموضوع أهمية بالغة كونه يرفع اللثام عن شكل من أشكال الخطاب الرحلي والذي نلمس أن جل الدارسين له يتناولونه بكونه خطابا نثريا دون إشارة للقصائد الرحلية.

2– مفهوم الرحلة الشعرية

والرحلة فن فضفاض قائم بذاته، يتميز بمرونة عالية وقدرة كبيرة على التلون والاختلاف حسب مقتضى كل فرد، أو عصره وبيئته، إضافة لدافع رحلته والذي له سلطة مباشرة على مضمون الخطاب الرحلي، «فشرط الواقعية من أهم ما يميز أدب الرحلات عن غيره من الأنواع الأدبية، والرحلة الواقعية معناها أنها حدثت بالفعل»[2]، فهي حقيقة بكل تفاصيلها؛ ولا يعني خلوها التام من الخيال، فهي عمل فني وبذلك لابد أن تمتزج بالخيال إلا أن دوره يكون ضئيلا فيها وله وظائف محددة .

ولئن آثر جل الرحالين استخدام النثر في وصف رحلاتهم «لما له من مميزات لا تتوافر لنظيره الشعر، ورغم أن الشاعر قد يصف رحله أحياناً، فإن عمله يكون عارضاً، وربما خياليا، إن النثر يتيح للرحال حرية الوصف والحركة دون قيود أو معيقات، لذا فإن استخدامه يصبح مبررًا بل ضروريا، كما أن النثر أداة تواصل بين الشعوب عكس الشعر الذي يفقد أهم خصائص حين يترجم ... قيمة النثر في الأفكار التي يحملها، وقيمة الشعر في كيفية أدائه»[3]، وفي مقابل هذا فقد اعتمد عدد من الرحالين الشعر وسيلة للتعبير عن رحلاتهم.

3– نشأة الرحلة الشعرية

ونشير إلى القصيدة الجاهلية وكذا قصائد العصرين الأموي والعباسي التي تضمّنت رحلات قائمة في سياقها الشعري؛ حيث وردت في ثنايا القصائد الجاهلية المركبة كامتداد للمقدمة الطللية، فقد كانت الرحلة من أهم الأسس الفنية في بناء القصيدة (المقدمة الطللية، وصف الرحلة...)، ثم انفرد هذا الغرض في قصائد خاصة به؛ فقد عمد الرحالون إلى تدوين رحلاتهم شعرا في قصائد مستقلة تحمل الرحلة موضوعا.

ويزخر التراث العربي بمجموعة من الرحلات الشعرية؛ فقد دوّن «أحد الملاحين المعروف **بماجد** تجاربه البحرية في مصنف ضخم سماه "الأرجوزة الحجازية" ضمّ أكثر من ألف (1000) بيت، وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري»[4]، وهناك أيضا «قصيدة في وصف الحج باللغة الاسبانية بحروف عربية لأحد الموريسكيين عثر عليها مخطوطة باسبانيا أواخر القرن السادس عشر (16) وهي بعنوان قصيدة الحاج القادم من بوي مونشون»[5].

وتكتب الرحلات الشعرية على شكلين؛ إما **بشعر فصيح أو بشعر ملحون**؛ حيث تدون على شكل قصيدة عمودية «ومما كتب بالفصيح قصيدة **محمد بن منصور العامري التلمساني**[6] التي فرغ منها سنة 1152م، وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مراحل رحلته من مدينة **تازة** حيث يقيم إلى **الحرمين الشريفين** ثم منهما إلى الشام والقصيدة تبدأ على النحو التالي:

أزمع السير إذا دهت أدواء لشفيع الأنام فهو الدواء»[7]

كما نظم «**عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي**[8] رحلته من **مجاجة** إلى **مكة المكرمة** في قصيدة مطولة سنة 1063 وهي تبدأ على النحو التالي:

نشق الفيافي فدفدا بعد فدفد جبالا وأوعارا وأرضا وطية

وقد أخبر المجاجي فيها أن التقى بالشيخ علي الأجهوري بمصر، وزار في الإسكندرية قبر أبي العباس أحمد المرسي وقبر ابن الحاجب»[9]، ومن الرحلات الشعرية المكتوبة بالفصحى نجد أيضا؛ رحلة **القطب أطفيش**[10]المعنونة**بالقصيدة الحجازية**[11]، والمنظومة في شكل قصيدة مطولة ضمّت مئتين واثنين وثلاثين (232) بيتاً وفق بحر الطويل وروي الهمزة، كما نجد أيضا قصيدة **الوارجلاني**[12]والمعنونة (بالقصيدة الحجازية أو رحلة الوارجلاني)[13] هي رحلة دينية حجية والتي يقول في مطلعها:

عذيري عذيري من ذوات المعاجز ذوات العيون النجل بيض المحاجر

ذوات الشفاه اللعس بالظلم واللما غرائر خرق الصنع سود الغدائر

ثم يقول في البيت الخامس منها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجلان بفتيان صدق من وجوه العشائر
جريونجوّابون كلّ تنوفة يحار بها هادي القطا المتصادر

أما في الشعر الشعبي الجزائري فقد احتل شعر الرحلة مكانة متقدمة عن الأغراض الأخرى بحيث نظم فيه الكثير من فحول الشعر الشعبي من أمثال بن سهلة، والمنداسي، وبن المسائب، ويسمى في الشعر الشعبي أو الملحون الجزائري **بالقطاعة** وهو استقلال لغرض الرحلة في القصيدة الجاهلية وهو الشعر الذي يصف منتجات الأحباب ومكان مصيفهم ومشتاهم وإنما سمي **قطاعة** من قولهم **"المقطع"** أي المكان الذي يقطعون فيه مسار الترحال لاختصار المسافة.

«ولنذكر من الشعر الملحون قصيدة **محمد بن مسايب التلمساني**[14] في القرن الثاني عشر فقد نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكنة المكرمة عبر مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها مارا بالطريق التقليدي الذي كان يسلكه حجاج الغرب (مليانة فالبليدة فمدينة الجزائر فمجانة فقصر الطير فقسنطينة فالكاف، ثم تونس) وقد قام ابن مسائب برحلة برية مر فيها بعد المدن المذكورة بطرابلس ومصر، بينما كان اللذين يأخذون طريق البحر يركبون من تونس وينزلون في الإسكندرية (القصيدة موجدة في المجلة الإفريقية 190، 259-282 محمد بن أبي شنب)،

«يا الورشان أقصد طيبة وسلم على الساكن فيها

وتبدأ رحلة بن سائب الشعرية بهذا الطالع:

يا الورشان أقصد طيبة زر فاقد مرسم شيبا
لا تخمم في أمر الغيبة ولا تحدث نفسك بها»[15]

ولابن المسائب رفيقان في هذا الفن هما: **ابن التريكي**[16]، والزناقي فكلاهما رحل مثله من تلمسان إلى مكة وكلاهما كتب مثله رحلته شعرا ملحونا»[17].

4– خصائص الرحلة الشعرية

عُدَّ الشعر بنية هامة استند إليها الرحال للقائه بالمتلقي وسرد رحلته بما تحمله من فنون ومعارف وما تنطوي عليه من عوامل نفسية وفنية؛ لما للشعر من جمال فني وقوة في التعبير وقدرة على تمرير الرسائل المختلفة ولهذا فقد تميزت الرحلات الشعرية بجملة من الخصائص منها:

1- العنوان:

يشكل العنوان صورة مصغرة وعلامة دالة على النص؛ فهو يحيل إلى موضوعه وهدفه، حيث يعد علامة مميزة له، و ردءاً للالتباس مع نصوص أخرى؛ فكل دراسة للخطاب الرحلي أو غيره لابد أن تنطلق من العنوان «باعتباره العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف خصوصاً وأن عنونة كل شكل تعبيري تشكل مدونة تضم بوحاً بجنس ذلك الشكل وتختزن مقصدية المؤلف وإدراكه للكتابة التي حررها كما تضم نداءً للقارئ ومرشداً له في آن»[18].

ولا يخلو نص رحلي من عنوان، يدل على اتجاهه أو مضمونه ولهذا فإن العنوان يشكل «شبكة متجذرة في قطبين: الأول لغوي يجسده النص ودلالته، والثاني نفسي تأويلي للمؤلف»[19]، ومن ذلك تتأسس الرحلات عبر عناوينها الموحية لما هو بين النص وعنوانه، ويعد«العنوان في الرحلة علامة إخبارية تقدم تلميحاً لمضمون المؤلف في جملة أو جمل متعددة مرتبطة فيما بينها»، ولهذا يعد عنوان الخطاب الرحلي رمزاً يحدد هويته عبر جملة من المكونات المنضوية تحت لوائه والتي تنطلق أساساً من فعل السفر والارتحال.

إن المميز لعنوان الرحلة الشعرية دلالته الصريحة والقاطعة على كتابة مضمونه شعراً، كما يتميز أيضا ببساطته واحتوائه في جل الرحلات الشعرية على كلمتين؛ الأولى من صميم الشعر والثانية من أنواعه والثانية باسم المكان المنتقل والمتوجه إليه، كرحلة القطب أطفيش المعنونة باسم "**القصيدة الحجازية**" والتي وضع لها المحقق عنواناً بديلا تمثل في "رحلة القطب"، ورحلة الوارجلاني الموضوعة تحت عنوان "القصيدة الحجازية" أيضا، ومن الرحلات الشعرية كذلك؛ "الأرجوزة الحجازية (رحلة أحد الملاحين المعروف بماجد)، ولهذا فإن الدارس للرحلة الشعرية يستشف مضمونها، وأسلوب وآلية كتابتها.

2- مقدمة الرحلة: (خطاب التقديم أو الاستهلال)

يمثل خطاب التقديم في النصوص الرحلية عنصرا بنائيا وضرورة واجبة فهي في هذا النوع ذات أهمية كبيرة؛ لأنها «ستكون بمثابة مفتاح أو كشاف الرحلة الذي يفتح وينير مغالقها للقارئ»[20] ؛ حيث يتشكل من عناصر تمهيدية وأسس متعلقة بالرحلة.

وخطاب التقديم يتضمن عناصر تعمل على تأطير النص وإضاءة بعض جوانبه ومساراته لفهم قضايا مرتبطة بالكتابة في الرحلة؛ ولهذا فإن القارئ يتخذ من المقدمة إطارا لموضوعها ليتسنى له التعرف على نموذج الأسلوب وبراعة الرحال التي يشحن فيها قلمه في بداية العملية الإبداعية.

وتعد المقدمة أو المطلع في الخطاب الشعري فهي مختلفة تماما؛ حيث يكتفي الرحالون فيها بحمد الله تعلى ثم ذكر دفع الرحلة ألا وهو أداء مناسك الحج، ذلك أن جلها حجازية حجية، ويرفق الدافع فيها كم يسجلون عواطفهم المتأججة ببيان عظيم شوق الرحال لأداء مناسك الحج وزيارة الرسول الحبيب ﷺ والمدينة ولتبرك بترابها وهوائها هذا وقد ذكر بعضهم يوم وزمن الخروج والانطلاق في الرحلة دون ذكر مفصل للشهر أو السنة، يقول فيها:

«هجرنا مسقط الرؤوس وما نرى سوى الحج إنّ الحج قد حان أن يرى

وغير اعتمار والزيارة للنبي عليه الصلاة والسلام زها الثَّرى

فلله حمدٌ حمد فإن لذي البقا وحمد فقير للغني عن الورى

خرجنا بضحوة الخميس بمثل ما +خميس، ونحن في خلاء عن المِرَا»[21]

كما تتسم الرحلات الشعرية بوصفها الأحاسيس الدينية والروحية أثر منها في الشعرية، وقد افتتح محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني، رحلته لحجازية الحجية بقوله:

«أزمع السير إن دهت أدواء لشفيع الأنام فهو الدواء»[22]

وأما الرحلات الشعرية من الشعر الملحون نجد رحلة محمد بن مسائب التلمساني التي كتبها في قصيدة بعنوان "يا الورشان" ويقول في مطلعه:

«يا الورشان أقصد طيبا زر فاقد مرسم شيبا

لا تختصم في أمر الغيبا ولا تحدث نفسك بها»

يا الورشان أعزم بمشيك إتكل على الله وعليك

ذا الوصاية نوصيك خذها وتهلا فيها

نرسلك من باب تلمسان سر في حفظ الله والأمان»[23]

وتتعدد صيغ المقدمات وفق الدوافع والموضوعات، ومن هنا «أعتبر التقديم في النصوص الرحلية ضرورة واجبة أكثر منها في الأشكال الأخرى نظرا لطبيعة النص الذي يحتاج إلى تقديم بعض المعلومات والإيضاحات حول الرحلة أحيانا لتبريرات معينة»[24].

ولا تزيد المقدمة الشعرية عن الأربع أو الخمسة أبيات ليبدأ مباشرة في مكان انطلاق الرحلة، وفي كل الأحوال تبقى المقدمة في الخطاب الشعري أو النثري «مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة لأن القارئ يكون متشوقا لمعرفة تفاصيل الرحلة»[25]، فهي دليل يفتح الباب أمام القارئ ويتركه في متعة الكشف عن مجاهيل النص، ويختلف الاستهلال وفقا لدوافع الرحلة وبهذا تمتاز الرحلات بصيغ استهلالية عديدة ومتنوعة بحسب ضروب الرحالين ومشاربهم.

3- التنوع والشمول:

وهي ميزة تخص الرحلة عموما؛ وهذان الملمحان يميزان جلّ ما دوّن وحرر في أدب الرحلة ذلك أن الخطاب الرحلي «بنية تتضمن نصيصات وبنيات متعايشة تلتقط عناصر وأشكالا أخرى في بنائها العام»[26]، فهو غني بشموله؛ ذلك أنه حوى كل التخصصات في شتى مجالات الحياة؛ من تاريخ وجغرافيا ودين وسياسة واجتماع، بل حتى علم الفيزيائية والرياضيات؛ فقد تحرّى الرحالون النقل الصادق والتصوير الأمين والوصف الدقيق بموضوعية.

كما تنوعت مضامين الرحلات، لما تزخر به من مواد علمية تارة وثقافة شعبية تارة أخرى، واقعية أوأسطورية؛ لتحقيق الفائدة والمتعة للمتلقي، فقد حرص الرحالون على الإخبار عن أهم أعلام المجتمع، وعن عاداته وطبائعه، ومدنه وبلدانه، وطرقه ومسالكه بشتى الأساليب الفنية والأجناس الأدبية المنصهرة والمتمازجة ضمن نسيجها الشعري؛ وهذا ما حفّز القصيدة الرحلية على استثمار معطيات الأجناس الأخرى، فلطالما زاوجت

وصاهرت بين الصوت الشعري والصوت النثري الممثل في الأجناس الأدبية الأخرى والعلوم المختلفة مما جعل خطاب الرحلة الشعرية خطابا فسيفسائيا متنوعا وشاملا.

وعليه فقد استوعبت القصيدة الرحلية أنماط الكتابة الأخرى حتى غدت جنسا مختلطا ومزيجا متجانسا من هذه الأنماط، حيث تعود الهيمنة فيه دائما للصوت الشعري دون أن يفقد هويته المائزة التي تجعله يندرج ضمن الشعر.

4- جلها رحلات حجازية(حجية):

ظل الحجاز وما يزال مهوى لأفئدة المسلمين ومقصدا لرحالهم؛ فعكفوا على تدوين أخبارهم ووصف مشاهداتهم بصدق وعفوية؛ فعدت مؤلفاتهم من أمتع وأكثر الكتب استهواء، وبخاصة الشعرية منها؛ فجلها إن لم نقل كلها رحلات حجازية جحية؛ ذلك أن «نفس الرحالين تتوق للحرمين وزيارة البقاع، فالحجاز في نضرهم ليس مجرد بقعة جغرافية؛ لكنها أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة الإسلامية، ولذلك يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه ،كما أن الرحلات الشعرية تشترك إن لم تقف الرحلات النثرية في وصف الأحاسيس الدينية والروحية»[27].

ولهذا فقد هيمن الدافع الديني بل وحج بيت الله تعالى على الرحلات الشعرية الفصيحة والعامية (الشعر الملحون) فجاءت جلها حجازية (حجية)، فكل الرحلات المذكورة سابقا رحلات حجازية حجية؛ كرحلة القطب أطفيش، ورحلة الوارجلاني، ورحلة بن المسائب والعامري والمجاجي...، فقد اهتم الرحالون بالشعر وبرعوا فيه فهما وتأليفا، واحتفوا به وجعلوا من مؤلفاتهم شعرا يصف رحلاتهم، وبما أن «نفس الرحالين تتوق للحرمين وزيارة البقاع، فالحجاز في نظرهم ليس مجرد بقعة جغرافية؛ لكنها أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة الإسلامية، ولذلك يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه، كما أن الرحلات الشعرية تشترك إن لم تقف الرحلات النثرية في وصف الأحاسيس الدينية والروحية»[28].

يقول الوارجلاني في قصيدته:

كأن فؤادي يوم فارقت مكة أخو نشوة أو عند ليث المقاصر

ضعيف القوى بادي الصبابة هائم شجي الهوى واهي العرى والبصائر

ويقول القطب أطفيش في مطلع قصيدته:

هجرنا مساقط الرؤوس وما نرى سوى الحج إن الحج قد حان أن يرى
فلله حمد فان لذي البقا وحمد فقير للغني عن الورى»[29]

5- طول القصائد:

يتجسد الخطاب الرحلي وتتحدد موضوعاته وفق نمطية السفر، والتجربة، والأوصاف الخاصة بالأمكنة والوقائع؛ ولهذا فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها، فقد شملت جوانب الحياة المتعددة من تاريخ وجغرافيا، ورصد لظواهر الاجتماعية، والاقتصادية.

ولما كان الخطاب الرحلي حقلا مشتركا تتفاعل فيه عديد المعارف والفنون، والأخبار والأوصاف الدقيقة ناهيك عن طول الرحلة؛ فقد تحتم على الرحالين نظم القصائد الطوال لتستوفي جميع أخبار رحلاتهم وأوصافها وحيثياتها، فنجد الرحلة الشعرية للوارجلاني ضمت (374) أربعا وسبعين وثلاثمائة بيت شعري، والرحلة العامرية المكونة من (335) ثلاثمائة وخمس وثلاثين وثلاثمائة بيت شعري، أما رحلة البحار ماجد فقد ضمت (1000) ألف بيت، كما ضمّت رحلة القطب مائتين واثنين وثلاثين بيتا (232)، إضافة لرحلة الوارجلاني التي ضمّت ثلاثمائة وأربع وسبعين (374) بيتا.

6- شعر ديني يبرز فيه الاتجاه الإسلامي:

يشكل الدين الإسلامي عنصرا أساسيا في تشكيل معمار الرحلة الشعرية؛ فقد عمد مجموعة من الرحالين وعلماء الدين الذي يتمتعون بتقاليد فن الرحلة وخاصة الحجازية منها والتي يجهز فيها بكثافة «التي لم يعرف لها نظير في تاريخ الرحلات العربية وغير العربية»[30]؛ لما لتلك الأرض الطيبة من جاذبية روحية لتخليد رحلاتهم وكتابة كل أحداثها وما لاقوه فيها.

لقد برع هؤلاء الرحالة في الشعر دراسة وتحليلا وتأليفا؛ فدونوا رحلاتهم شعرا محملا متضمنا لأفكارهم الدينية وعلومه الإسلامية، بل وحتى إشارات لتعلمهم وتعليمهم الفقه والعلوم الشرعية منتقلين في مجملها لذكر المناسك الدينية للحج في بعض الأحيان «بل إنهم كتبوها وهم متلبسون بنسك يؤدونه بعيدا عن الميل الهوى»[31]، هذا ما جعل الرحلات الشعرية تصطبغ وتحمل الطابع الديني والاتجاه الإسلامي، إضافة لتوجه الرجال

الرحالين فهم دعاة ومرشدون ومعلمون وحديثهم لا يخلو من ضمير ديني، ويورد الطابع الديني «لتحقيق التوازن النفسي والروحي للرحال»[32].

فنلحظ الاقتباس من الحديث الشريف والإفتاء في رحلة القطب في قوله:

7- اعتماد البحور الكاملة (المركبة):

كذلك لا ينام منتاط راحلة**** لقول رسول الله أفضل من درى

ألا بوئت من نائم فوق سطحه**** بدون حجار أو حظا ربه احترى

من الله ذمة ومني ولا تكن**** كراسي من ظهور ذي الذي والجرا »

لم يفتأ الخطاب الرحلي، إلا وانفتح على أشكال الكتابة الأخرى، فحقق تركما ضمن دائرة الأدب وأفادت الحقول الأخرى

خضع أثناء الرحلة لمسيرة طويلة من أجل التشكل والتجنس، وتحولت الرحلة من فعل إلى نص وإبداع يستقطب تعددا وتنوعا، بمكونات وخصوصيات تكررت بحسب النوع ودرجات الاهتمام والوعي بالكتابة؛ كل هذا التنوع المعرفي والتعدد الثقافي الذي تضمنه الخطاب الرحلي ألزم الرحال انتقاء البحور الشعرية الكاملة أو المركبة في قصيدته الرحلية (الرحلة الشعرية)، لاستيعابها وقدرتها على احتواء الانفتاح والتنوع في الخطاب الرحلي وما يحمله من أوصاف وآراء وأفكار سعى الكاتب إلى تجليتها.

وقد ظلت القصيدة العمودي تميز الرحلات الشعرية، والوزن والقافية والمحافظة على مصراعي البيت وتعدد الأفكار فيها.

9-تقنية السرد:

تستمد الرحلة سرديتها من عناصرها التكوينية المشكلة أساسا من الانتقال والسفر من مكان لآخر، ومن تلاقيها مع النصوص الأخرى؛ إذ يتحدد السرد في الرحلة وفق استراتيجيات عامة وخاصة أساسها خطية الرحلة المرسومة بنقطة انطلاق ونقطة توقف وما يصحبها من مشاهدات وتأملات وحوارات، ثم نقطة الوصول «إنها إستراتيجية تحصر الزمن وتجدد الفضاء والأحداث المشاهدة المروية والمتخيلة، وما يخضع له الزمن أثناء تحويل الأحداث والوقائع من مجربة معيشة إلى سرد مكتوب»[33]، يتضمن عناصر وتشكلات ترسخ نسيج السرد الرحلي.

ولهذا عدّ السرد أهم العناصر المشكلة لخطاب الرحلة المتعدد الأبنية والمحكيات والمصادر والذي يحكمه بنية السفر، وقد «أفرز السرد الرحلي خصائص وروابط مشتركة تتحول حسب الاستعمال، منها الإيجاز والحقيقة والخصوصية وبساطة الأسلوب إلى بنية متفاعلة أساسها الرحلة الانتقالية الواقعية»[34] التي تبدأ بنقطة وتنتهي في أخرى، ولهذا فقد عدّ كثير من الباحثين الرحلة حكاية سفر من مكان لآخر.

وكما يقول «"جان إفطادييي" إن كل قصيدة هي في مستوى من المستويات محكي...»[35] وانتقال من عنصر لآخر؛ ولذا فإن هيمنة السرد في الخطاب الشعري الرحلي (الرحلات الشعرية)، ينفي تماما «مبدأ مقولة بقاء النوع إذ فيه سمات أدبية ومقولات نوعية تجعله خطابا متعدد الأنواع يتداخل فيه الشعري والسردي بامتياز»[36]، حيث يتمظهر السرد في الشعر دون أن يفقد كل منهما حضوره الفاعل والشاخص الذي لا يخرجه من إطار جنسه وأغراضه وإنما يعلن قدرته على الانفتاح والتجدد.

خاتمة:

ومنه نستخلص أن الرحلات الشعرية وهي رحلات عمد مؤلفوها إلى سردها ونظمها شعرا ووصف كل ما لاقوه فيها بدءاً من لحظة الانطلاق وحتى الوصول في قصيدة مطولة خاصة بالرحلة، وتكتب الرحلات الشعرية على شكلين؛ إما بشعر فصيح أو بشعر ملحون، وتتسم الرحلة الشعرية بأسلوبها الأدبي وقوة عباراتها وجزالتها، وعُدَّ الشعر بنية هامة استند إليها الرحال للقائه بالمتلقي وسرد رحلته بما تحمله من فنون ومعارف وما تنطوي عليه من عوامل نفسية وفنية؛ لما للشعر من جمال فني وقوة في التعبير وقدرة على تمرير الرسائل المختلفة.

تحمل خصائص الشعر العمودي التقليدي، وتتميز بطولها، قصيدة خاضعة لنظام الوزن، منظومة وفق بحر من البحور الخليلية، معتمدة على القافية والروي الواحد في كل القصيدة، التي تنعت وتسمى القصائد باسمه في كثير من الأحيان، وقد اكتسى هذا اللون الشعري حلة جمالية وأهمية بالغة فهو بمثابة مؤرخ لرحلات قام بها فرد أو قبيلة خلّدها الشاعر بقصيدة تتناقلها الألسن وتؤرخ بها رحلة القبيلة، إضافة لكونه يعد همزة وصل بين الأجيال.

أما في الشعر الجزائري فتميز (شعر الرحلة) بالشوق كما ضمنه الشاعر أبعادا جديدة تلائم الطابع المحلي البدوي حينا والحضري حينا آخر، وكانت الرحلة البدوية "القطاعة" استمرارا تاريخيا للرحلة الجاهلية كما وردت في المعلقات.

أما الرحلة الحضرية، فقد أتت تعبر عن الشوق إلى الحارات والأزقة والمواقف (مساجد، أضرحة، أسواق) كما أن شعر الرحلة قد فتح المجال لكي تجود قرائح الشعراء بأروع القصائد التي تعالج موضوع الاغتراب والفراق والشوق إلى الديار والأحبة.

كما تميز شعر الرحلة بعدة أمور منها:

-يُصور جانبا من جوانب النفس الإنسانية.

- أنه ذو طابع غنائي لان الموسيقى توقظ الشعور وتحرك الوجدان لأنه كان يقال أثناء الطريق ومن هذا سمي بأغاني الطريق.

- غلبة الأسلوب الإنشائي في شعر الرحلة باستثناء المشاهد الوصفية.

- عبارة عن وثيقة هامة تدر من خلالها الرحلة والأسفار كما صورها الشاعر.

- تطرق إلى أشكال المسالك المختلفة وأنواع الرحلات والأهداف منها.

- يقدم خدمة جليلة وفائدة عظمى في الحفاظ على الموروث العربي ويساعد في الحفظ عليه من الضياع (تقاليد وعادات الرحلة).

- أما بالنسبة لشعر الرحلة في الملحون الجزائري فقد اختص بـ:

-ارتباط الشاعر الجزائري بتراثه العربي ملونا إياه بطابع محلي يا الورشان، يا القمري بدل ليت الحمام، ويابرق.

- يتجلى فيه مظهر البراعة الجزائرية التي أبدعت في هذا اللون الشعري.

الهامش:

[1]- شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2006م ، ص:129.

[2]- ناصر الموافي ، **الرحلة في الأدب العربي**، دار النشر للجامعات المصرية، جامعة القاهرة، ط1، 1415ه/1995م، ص:41.

[33]- ناصر الموافي ، **الرحلة في الأدب العربي**مرجع سابق، ص:41.

[4]- حسين نصار، **أدبيات أدب الرحلة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991م، ص:101.

[5]- ينظر:شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص: 121.

6.محمد بن منصور العامري التازي المتوفى حوالي 1170ه/1756م، له الرحلة العامرية وهي حجازية حجية نظمها في 335 بيتا عام 1152ه، توجد نسخة منها بالمكتبة الأحمدية بفاس ونسختان بمكتبة الأستاذ محمد المنوني بمكناس إحداها بخط المؤلف ، وقد نشر المنوني نص هذه الرحلة في كتابه ركب الحاج المغربي ص:88. ينظر: الشور السعيد، من مظاهر الوحدة العربية الإسلامية الرحلات الحجازية وصلت بين شقي العروبة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية،الرباط، المغرب، مجلة دعوة الحق، العدد 187.

[7]- عبد السلام بن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1418ه/ 1997م، ص:433.

[8]- المجاجي؛ هو عبد الرحمان المجاجي (القرن 13ه - 19م) عالم بالحديث، وفقيه وأصولي من أهل مجاجة، تعلم بها وبتلمسان، ثم انتقل إلى المغرب وسكن بمدينة فاس، من أثاره التبريج في أخبار المغلرسة، وحاشية على جمع النهاية لعبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأندلسيالمتوفى سنة 695ه. ينظر: معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية ،بيروت ، لبنان، ط3، 1983م، ص: 286.

[9]- سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، الجزء الثاني،1401ه/1981م، ص388.

[10]- القطب أطفيش؛ هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيش وينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاني جد العائلة الحفصية المالكة في تونس، مجتهد من أكابر العلماء في الفقه والأدب واللغة والتفسير ، ومن رجال النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر، ولد في بني يزقن سنة (1236ه/1820م) وبها تعلم ونشأ، عكف على التصنيف والتدريس والوعظ والارشادإلى أن وافاه الأجل في مسقط رأسه وعمره ستة وتسعون عاما سنة (1332ه/1914م) له عدد كبير من المؤلفات في شتى العلوم.ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية ،بيروت ، لبنان، ط3، 1983م، ص: 19-20.

[11]- محمد بن يوسف بن عيسى اطفيش، رحلة القطب، تحقيق يحي بن بهون حاج محمد، العطف، غرداية، ط1، 2007م.

[12]- الوارجلاني؛ هو يوسف بن ابراهيم بن مناد السدراتيالورجلاني المعروف بأبي يعقوب ولد سنة (500هـ/ 1106م) بسدراتةبوارجلان (ورقلة) نشأ في سدراتة وتلقى مبادئ العلوم على يد علمائها ثم انتقل إلى الأندلس ليتم تعليمه بها ، حيث أقام سنين طويلة بقرطبة حيث كان متميزا في شتى العلوم ، حيث يعد من أكابر الفقهاء والمفسرين في عصره، إرتقى في العلم درجات حتى ذاعت شهرته في الآفاق، ثم عاد إلى مسقط رأسه منقطعا لخدمة العلم توفي عام(570 هـ/1175م)، له العديد من المؤلفات في أصول الفقه.ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية ،بيروت ، لبنان، ط3، 1983م، ص: 339 وما بعدها.

[13]- أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحي بن بهون حاج امحمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م.

[14]- أبو عبد الله الحاج محمد بن مسايب أحد فحول الشعر الملحون في الجزائر والمغربالعربي، ولد وترعرع في مدينة تلمسان في القرن الثامن عشر(18) للميلاد إمتهن حرفة الحكاية بالحارة، الشعبية"بابزاير" أحب فتاة في حياته إسمها عائشة خلدها في أشعاره وبعد تأديته لفريضة الحج تفرغ إلى القصائد الدينية التي لا تقل جمالا عن نظيرتها الغزلية. توفي سنة 1180هـ/ 1768م. ينظر: ديوان ابن مسايب، محمد بخوشة، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1370هـ، ص:1-5. وينظر:شعيبمقنونيف، مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقاربة منهجية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص:74. ينظر: محمد بخوشة، الحب والمحبوب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1939، ص:6-7.

[15]- ديوان ابن مسايب، محمد بخوشة، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1370هـ.

[16]- هو أحمد بن تريكي، تصغير تركي، تلمساني الدار والنشأة، شاعر مكثر في الجد والهزل ذاعت قصائده في الجزائر كلها والمغرب، لقب بابن الزنقلي، هو واحد من تلاميذه "سيدي سعيد بن عبد الله المنداسي" توفي في أوائل القرن الثاني عشر (12) الهجري. ينظر: شعيب مقنونيف، مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقاربة منهجية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003م، ص:75 – 76.

[17]- سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، الجزء الثاني،1401هـ/1981م، ص: 389.

[18]- ينظر: حليفي شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص: 172،171.

[19]- ينظر: شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص: 172.

[20]- الموافي ناصر عبد الرزاق، **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، (ط1)، 1415هـ/1995م ، ص:71.

[21]- أمحمد أطفيش، **رحلة القطب**، تحقيق يحي بن بوهون حاج امحمد، العطف غرداية، ط1، 2007، ص69.

[22]- ينظر: سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، مرجع سابق، ص387-388.

[23]- قداش عزيزة، **شعر الرحلة ابن مسائيأنموذجا**، المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج، معهد اللغات والأدب العربي، قسم اللغة العربية، 2011/2010، ص42-46.

[24]- شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص184.

[25]- الموافي ناصر عبد الرزاق، **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، (ط1)، 1415ه/1995م.ص71.

[26]- شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص36.

[27]- ينظر: سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، مرجع سابق، ص:387.

[28]- المرجع نفسه،ص:387.

[29]- أحمد أطفيش، **رحلة القطب**، مرجع سابق، ص: 62.

[30]- عيسى بخيتي، **أدب الرحلة الجزائري الحديث**،أطروحة دكتوراه علوم، كلية الآداب واللغات، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر،2015-2016م، ص185.

[31]- عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية والأندلسية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض السعودية، دط، 1417ه/1996م، ص:11.

[32]- حليفي شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص243.

[33]- شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص:268.

[34]- شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، مرجع سابق، ص:230.

[35]- عطية وهيبة **جمالية التداخل الأجناسي في الشعر القصصي**، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة العربي التبسي، ص:8.

[36]- المرجع نفسه،ص:04.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحي بن بهون حاج امحمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م.

2. الموافي ناصر عبد الرزاق، **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، (ط1)، 1415هـ/1995م.
3. **احمد بن يوسف بن عيسى اطفيش، رحلة القطب، تحقيق يحي بن بهون حاج احمد، العطف، غرداية، ط1، 2007م.**
4. حسين نصار، **أدبيات أدب الرحلة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991م.
5. سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، الجزء الثاني،1401هـ/1981م.
6. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، الجزء الثاني،1401هـ/1981م.
7. شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)**، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2006م.
8. عبد السلام بن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/ 1997م.
9. عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية والأندلسية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض السعودية، دط، 1417هـ/1996م.
10. مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقاربة منهجية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003م،
11. ديوان ابن مسايب، محمد بخوشة، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1370هـ
12. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية ،بيروت ، لبنان، ط3، 1983م.
13. معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويض الثقافية ،بيروت ، لبنان، ط3، 1983م.

مقال في مجلة:

1. الشور السعيد، من مظاهر الوحدة العربية الإسلامية الرحلات الحجازية وصلت بين شقي العروبة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية،الرباط، المغرب، مجلة دعوة الحق، العدد 187.

رسالة جامعية:

1. عطية وهيبة **جمالية التداخل الأجناسي في الشعر القصصي**، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة العربي التبسي.

2. عيسى بخيتي، **أدب الرحلة الجزائري الحديث**،أطروحة دكتوراه علوم، كلية الآداب واللغات، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر،2015-2016م.
3. قداش عزيزة، **شعر الرحلة ابن مسائب أنموذجا**، المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج، معهد اللغات والأدب العربي، قسم اللغة العربية، 2011/2010.